دار نشر بيك
عينة للقراءة غير مخصصة للبيع

هارالد هارمان
حضارات منسية من تاريخ العالم
25 طريقا مفقودا من طرق البشرية
2019، 232 صفحة و52 رسما وخريطة.
رقم الترقيم الدولي: ISBN 978-3-406-73410-6

مزيد من المعلومات تجدونه في الرابط التالي:
https://www.chbeck.de/26691745

دار نشر بيك

ستظل بعض الحضارات منسية إلى الأبد، أما البعد الآخر فقد خلّفت على أقل تقدير آثارا نستطيع تتبعها. يكتشف هارالد هارمان (*Harald Haarmann*) ها هنا مستعمرات تعود إلى العصر الحجري على بحيرة بايكال ويتعقب لغز البلاسكة الذين يُعدون سكان اليونان في عصر ما قبل الحقبة الهندو- أوروبية. كما يعثر على أصل تاريخي لقصص محاربات الأمازون على ضفاف البحر الأسود، ويشرح لنا الحضارة الغريبة لجزيرة القيامة عند أمريكا الجنوبية التي فنت بسبب مشاكل الطقس التي تسببت فيها بنفسها، كما يصف البقايا التي تم اكتشافها حديثا للمستعمرات الكبيرة في منطقة جنوب الأمازون التي كان الافتراض السابق ينطلق من وجود صيادين وجامعي ثمار في هذه الغابة البكر العتيقة. وتظهر لنا إجمالا الحالات الخاصة الخمسة والعشرون أن الإنسانية كان لديها إمكانات أكثر مما نظن. وفي عصر تظهر لنا فيه على نحو واع الجوانب المظلمة من حضارتنا نحن أنفسنا فإنه يجدر بنا أن نتذكر السبل المفقودة.

يعد هارالد هارمان واحدا من أشهر علماء اللغة المعروفين على مستوى العالم، حيث كان من ضمن ما حصل عليه من جوائز "جائزة اللوغوس" للجمعية الأوروبية للغويين الأوروبيين في باريس وكذا جائزة "بريميو جان موني". وقد ترجمت كتبه إلى لغات كثيرة. ومن ضمن ما ظهر له في دار نشر بيك نذكر "تاريخ لغات العالم" (الطبعة الثالثة 2016)، و"لغز مدنية الدانوب" (الطبعة الثالثة 2017) وكذا كتاب "على طريق اقتفاء آثار الهندو-الأوروبيين" (2016).

هارالد هارمان

حضارات تاريخ العالم المنسية

25 سبيلا مفقودا من سبل البشرية

دار نشر بيك

يحتوي الكتاب 52 رسما وخريطة

التدقيق اللغوي بالألمانية: بيترا ريدر

الفهرست

تمهيد: الحضارات الربيبة في تاريخ العالم **9**

1 سر رماح شونينغن **13**
حضارة الصيد لدى إنسان هايدلبرغ
من 320.000 عام خلت

2 دبدبة، بجع بري وأرواح حارسة أنثوية **21**
فن العصر الحجري القديم على ضفاف بحيرة بايكال
من 30.000 عام خلت

3 صيادو زعنفيات الأقدام في الجرف الجليدي **29**
أكان هناك مهاجرون إلى أمريكا في العصر الجليدي
من عام 19.000 إلى عام 23.000

4 أولى بناة المعابد في تاريخ البشرية **37**
حضارة الصيد في العصر الحجري المتوسط في منطقة غوبيكلي تيبي
الألفية العاشرة قبل الميلاد

5 الإلهة الكبيرة والبعوض **46**
جاتال هويوك، أقدم عاصمة في العالم
من 8 إلى 6 آلاف عام خلت قبل التاريخ

6 ألق أوروبا القديمة **54**
مدنية الدانوب بوصفها النموذج المبكر لرابطة الشعوب (الكومنولث)
من الألفية السادسة إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد

7 الدلمون الأسطورية **64**
مدينة تجارية في الخليج العربي
الألفية الثالثة قبل الميلاد

8 **بين هاربا و موهينجو دارو** 70
ألف مستوطنة ومستوطنة في حضارة السند
من عام 2800 إلى عام 1800 قبل الميلاد

9 **موكب الآلهة أمام أسوار حَتُّوساس (حَتُّوشاش)** 78
صعود الامبراطورية الحيثية وهبوطها
الألفية الثانية قبل الميلاد

10 **المومیوات الشقراوات في لولان** 88
هندو-أوروبيون في مقاطعة شينغيانغ الصينية
من الألفية الثانية إلى الألفية الأولى قبل الميلاد

11 **أرض الذهب الأسطورية بونت** 97
بعثة الملكة الفرعونية حتشبسوت
القرن الخامس عشر قبل الميلاد

12 **سر البلاسجة** 104
حضارة سابقة للفترة الهندو-أوروبية سكت عنها الإغريق
من الألفية الثالثة إلى الألفية الأولى قبل الميلاد

13 **ألعاب الثيران والنصوص الحلزونية** 110
أسرار الحضارة المينوسية في كريت القديمة
الألفية الثانية قبل الميلاد

14 **من الهلب إلى الصهريج الأرضي** 117
الأتروسكان وسيطا بين العالم اليوناني والعالم الروماني
من القرن التاسع إلى القرن الثالث قبل الميلاد

15 **الفرسان الرحل السكوثيون** 128
قوة عظمى في السهوب الأوراسية
من القرن العاشر إلى القرن الثاني قبل الميلاد

16 **الأمازونيات الغامضات** 135
جماعة المحاربات على ضفاف البحر الأسود
الألفية الأولى قبل الميلاد

17 **محاربو السحاب في بيرو** 144
ما يربط حضارة التشاتشابويا عند جبال الأنديز بالأوروبيين
من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر
18 **أهرامات تيوتيهواكان** 151
أقدم عاصمة في أمريكا الوسطى
من القرن الأول إلى القرن الثامن
19 **البشر الطيور والشواهد الحجرية عند البحر** 158
الحضارات المختفية في جزيرة القيامة
من عام 800 إلى عام 1500
20 **أكسوم وملكة سبأ** 168
مسيحيون ويهود جنوب الصحراء الكبرى
من عام 100 إلى عام 940
21 **مداخن الساحرات (بيري باكالاري) و مدن تحت الأرض** 176
أولى المجتمعات المسيحية في كبادوكيا (قبادوقيا)
من القرن الأول إلى القرن الحادي عشر
22 **زنوبيا، ملكة الصحراء** 182
مملكة باليرما في مواجهة الإمبراطورية الرومانية
القرن الثالث
23 **أبراج المعبد المهجورة في أنغكور وات** 190
فيشنو وبوذا في مملكة الخمير
من عام 802 إلى عام 1431
24 **الأسوار الصقلوبية لزمبابوي العظمى** 197
مركز تجاري في غرب أفريقيا
من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر
25 **أعمال التربة الهندسية في منطقة غابات الأمازون** 203
مستوطنات ما قبل كولومبيا تظهر إلى الوجود
من عام 1250 إلى عام 1500
المراجع والمصادر 209
ثبت الصور والخرائط 223

"بما أننا لا نعرف ما سيحمله لنا
المستقبل فإن خبرات الماضي هي
الأساس الوحيد لبناء معرفتنا."

إيمانويل كانط، نقد العقل المحض

تمهيد:

الحضارات الربيبة[1] الغامضة في التاريخ العالمي

لا تعالج غالبا كتبنا التاريخية الشعوب والحضارات البائدة إلا إذا كانت ذات أهمية من منظور التطور السياسي والثقافي وصولا إلى أوروبا العصر الحديث. ومن ثم تبدأ قصص أوروبا أو العالم على نحو محبب في مصر أو في بلاد الرافدين لأنه ها هنا تم اختراع أمور مفيدة مثل الدولة أو الكتابة. كما لا تُغفل إسرائيل شديدة الصغر في أي موضع انطلاقا من افتراض مفاده أن جذور المسيحية الأوروبية تكمن هناك. وهذا هو الحال أيضا مع اليونان صغيرة المساحة التي تحتل مكانا عظيما بسبب ما كان بها من ديمقراطية وفلسفة ومسرح. أما الإمبراطورية الرومانية فقد خلّفت إرثا عظيما للعصور الوسطى الأوروبية بما كان فيها من لغة لاتينية وأدب وقانون ودين. وأحيانا ما يتم أيضا مد الجسور ناحية "القرون المظلمة" ومعالجتها على هامش حضارات موجودة خارج أوروبا لم ينشأ فيها مع ذلك شيء ذو صلة بأوروبا.

[1] الربيب - ويجمع على أربَّاء، وأربَّة - هو ابن الزوجة من رجل آخر ويضرب به المثل عادة في التعامل المجحف غير المتساوي قياسا على الأبناء من نفس الصلب (المترجم).

لا شك أن هذا الوصف مبالغ فيه؛ فلقد تعلمنا كلنا فيما مضى أنه لا يجوز أن تتم كتابة التاريخ من منظور المركزية الأوروبية، كما تعلمنا أننا ندين بكثير من الفضل للحضارات التي كانت خارج أوروبا. وعلى الرغم من ذلك فإن النمط المذكور سابقا لا يزال راسخا في الرؤوس والكتب المدرسية. وأحد الأمثلة على ذلك هو التاريخ الاستعماري؛ فحتى لو لم يعد من الممكن أن نصف الاستعمار بأنه فاتحة خير وبركة على الشعوب التي جرى استعمارها بل بأنه كان إذلالا واستنزافا لها فإن أوروبا لا تزال تشغل غالبا بؤرة الاهتمام، كل ما هناك أنه في هذه المرة ليست بوصفها جالبة الخير والبركات. يجري مع مثل تلك الرؤية السكوت عن كل ما لم يترك آثارا مميزة لأمد طويل في مسار التاريخ المؤدي إلى أوروبا – سواء أكان الأمر هكذا فعلا أم من قبيل الافتراض لا غير –. ومن ثم لا يُسمح لهذا المكون الحضاري سوى أن يلعب على أحسن تقدير دورا ما في قسم الآثار النادرة في متحف تاريخ الحضارة شانه في ذلك شأن الطفل الربيب الغامض مهمش القيمة.

والكتاب الذي بين أياديكم يتناول بالشرح خمسة وعشرين من تلك الحضارات خارج دائرة الاهتمام على سبيل ضرب المثل لا غير حيث تعود أقدمها إلى العصر الحجري القديم. وسيظهر من خلال كثير منها أنها قد تركت بلا أدنى شك آثارها وأنها قد غيرت مسار التاريخ. غير أن صفحة النسيان طوتها لأن المنتصرين أو المدنيات اللاحقة قد أزاحتها جانبا أو صمتت عنها أو محت ذكراها وحظرتها أو لأن منجزاتها قد تم نسبها إلى حضارات أخرى. إن من سيقرأ فصول هذا الكتاب المرتبة ترتيبا زمنيا الفصل تلو الآخر يجدر عليه – وهذا هو المقصد المنشود – أن يكوّن تصورا مفاده أن التاريخ قد سار في الواقع مسارا مختلفا عما تعلمناه وأنه لربما كان قد اتخذ مسارا مختلفا لو أن ربة الحظ الرومانية فورتونا قد منت على شعوب أو حضارات أخرى بالنصر.

ولا تزال بعض الحضارات تطرح إلى اليوم ألغازا من المقرر أن نتتبعها في هذا الكتاب. ومنها على سبيل المثال تماثيل البازلت العملاقة في جزيرة القيامة[2] – إذ يطرح هنا السؤال نفسه عن الكيفية التي وصلت بها من المحاجر

[2] هي جزيرة بركانية مثلثة الشكل تقع في المحيط الهادي الجنوبي وتتبع دولة شيلي في أمريكا الجنوبية ويطلق عليها أيضا "جزيرة الفصح". (المترجم)

إلى ساحل البحر؟ أو تلك المومياوات ذات الشعر الذهبي المحمر في صحراء تاكلاماكان الصينية التي يبلغ عمرها أربعة آلاف عام وتحمل ملامح جينية قوقازية، إذ يطرح هنا السؤال مجددا نفسه عن الكيفية التي حدث بها هذا التوافق؟ أما العاصمة العملاقة لمملكة الخمير في كمبوديا الحالية بمجمعات معابدها العديدة (أنغكور وات[3]، أنغكور توم، بايون) فلم تتعرض للاحتلال بل هُجرت في وقت ما في صمت مطبق، ولكن لماذا؟ إن بعض الأشياء في البائد من الحضارات والممالك واللغات ستظل غريبة لأنه تم ها هنا البدء بالسير في طرق لم يتم استكمالها لاحقا. فهل كانت حقا "حارات سد"؟ تعود بعض الأنماط الحضارية التي يُتوهم أنها بادت للظهور في سياقات أخرى حيث يتم إضفاء الطابع المؤسسي عليها مجددا دون أن يكون من الممكن البرهنة على وجود رابطة مباشرة ما بين الأمرين. ومع هذا فإن التدبر مليا في أي روابط ممكنة هو جهد يستحق أن يُبذل.

سنذكر هنا بعض الحضارات الربيبة على سبيل ضرب المثل لا غير:

- لقد أنتج نوع القردة العليا منجزات تقنية راقية؛ فالرمح بوصفه سلاح صيد وصل بالفعل لدى إنسان هايدلبرغ إلى درجة شبه مكتملة من الرقي مثله في ذلك مثل الجهاز الرياضي الذي تم إعداده لكي يستخدمه أوليمبياً رماة الرمح الحاليون.

- لم تُبنى أقدم معابد العالم على يد الزراع المقيمين في بلاد الرافدين أو مصر بل فعل ذلك قبلها بآلاف السنين الصيادون وجامعو الثمار في المنطقة النائية الواقعة شرق الأناضول.

- لم يكن الهرم الاجتماعي وشكل المجتمع الأبوي المعيار السائد في كل الحضارات الراقية المبكرة، بل كان هناك في البواكير المبكرة نموذج لمجتمع قائم على المساواة على مستوى راق من التمدن، وكان هذا في مدنية الدانوب، أول حضارة راقية أوروبية من 6000 عام خلت تقريبا.

- تنتمي كثير من تعبيرات الثروة اللغوية الحضارية "اليونانية" إلى عصر

---

[3] النطق الصحيح لها باللغة الخميرية هو: أنغكور فوت، حيث تعني كلمة أنغكور "المدينة" وكلمة فوت "مجمع المعبد" أي مدينة المعابد. كما تعني أنغكور توم "المدينة الكبيرة" بينما تعني كلمة بايون "جبل النصر". (المترجم)

ما قبل الإغريق وتشير من ثم إلى إرثنا الحضاري الأوروبي القديم، ومن ذلك على سبيل المثال ما يقابل مصطلحات "الفخّار"، "المعدن"، "المسرح"، "الهلب" و"النفس" باللغة الألمانية.

- لا يمكن تصور النهضة التي شهدتها المدنية الرومانية بهذه السرعة العظيمة دون التأثير الذي مارسه الإتروسكان[4]؛ فكثير من الكلمات المستعارة التي يُفترض أنها لاتينية والموجودة في اللغات الحضارية الأوروبية هي ذات أصل إتروسكاني، كما أن فكرة رعاية النبلاء للثقافة تعود إلى أحد نبلاء الإتروسكان المهووسين بالثقافة.

- للأساطير الإغريقية عن الأماوزونيات (النساء المحاربات) أصل تاريخي؛ فقد اكتشف علماء الآثار مقابر تلك المحاربات في سهوب[5] منطقة البونطس عند البحر الأسود.

- لمصارعة الثيران التي نعرفها في عصرنا الحديث جذور قديمة. أما النسخة الشرهة للدماء كما هو الحال في إسبانيا وأمريكا اللاتينية فليست بنفس قدم النسخة المسالمة حيث نجدها في ألعاب الثيران الطقسية في جزيرة كريت في ظل حكم الملك الأسطوري مينوس.

- تعود بدايات طريق الحرير إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد، ومن ثم فإن طريق التجارة الذي يربط آسيا الوسطى بالصين أقدم كثيرا مما هو معروف عموما، كما لم يكن الصينيون هم من أعدوا هذا الطريق.

- عرفت أفريقيا في عصر ما قبل الاستعمار بالفعل حضارات راقية كثيرة ذات مراكز تجارية مترامية الأطراف. أما إذا ما دققنا النظر فسيتكشّف لنا أن المدنيات القديمة مرت بمسارات تطور كانت ذات طابع أفريقي مميز حيث تشكلت في تلك المدنيات من عناصر محلية وأجنبية وحدة شاملة قائمة على التكافل.

- لم يكن حوض نهر الأمازون قبل الغزو الإسباني والبرتغالي في القرنين

---

[4]تعود إلى الإتروسكان حضارة نشأت في إيطاليا القديمة في منطقة توسكانا الحالية على وجه التقريب. (المترجم)

[5]تختلف السهوب عن السهول – من بين أمور أخرى – في افتقارها إلى وجود الأشجار بها واقتصارها على الحشائش الطويلة خلافا للسهول التي يمتزج فيها الحشائش مع الأشجار. (المترجم)

السادس عشر والسابع عشر للأميركتين (الكونكستا) غابة بدائية تكاد تكون غير مأهولة كما أظهرت هذا صورة الأقمار الفضائية الحديثة.

إن ما يجعل المتأمل المعاصر ينظر إلى الحضارات البائدة بعين الغموض هو ذلك الظرف المرتبط بأن ذاكرتنا الحضارية لا توفر لنا لافتات إرشادية أو نقاط مرجعية يمكن من خلالها أن نعيد وضع حضارة منسية في محيطها الذي نشأت فيه. ومن ثم فإن أحد مهام هذا الكتاب يتمثل في إعداد شبكة تاريخية من المرجعيات توفر على أقل تقدير نقاطا إرشادية ولو على سبيل التقريب.

سيجري وصف الحضارات والممالك التي تم اختيارها في هذا الكتاب استنادا إلى آخر ما وصلت إليه البحوث. وأحيانا ما كان يُكتشف جديدٌ في مرحلة العمل على تأليف هذا الكتاب كما هو الحال في منطقة غوبيكلي تيبي الجبلية في تركيا أو في منطقة الأمازون. ودائما ما يتم – فضلا عن علم اللغة والحضارة – النظر بعين الاعتبار إلى تخصصات أخرى مثل علم الآثار وتاريخ الديانات أو علم الجينات البشرية، حيث سينصب الاهتمام على جوانب مختلفة بحسب الموضوع المطروح وبحسب آخر ما توصلت إليه المعارف. ولكن سيظل دائما وأبدا من المهم ها هنا هو أن نرسم صورة شاملة على قدر الإمكان. وفي النهاية سيظل من الضروري مع كل موضوع من الموضوعات أن نطرح السؤال عن السبب في وقوع حضارة ما من الحضارات ضحية للنسيان، وكذا أن نطرح السؤال عن تلك العناصر منها التي ربما لا تزال على قيد الحياة وأي من الألغاز لا يزال يتعين علينا سبر أغوارها.

يهدف الكتاب إلى إثارة الفضول وإلى إلقاء الضوء على نحو أو آخر على آثار حضارات طواها النسيان أو دفعها إلى أن تكون على الهامش بما قد يتيح للقارئ المهتم أن ينفذ ببصره ما بين الحين والآخر إلى داخل الأشياء. وإذا ما قُدر لهذه المجموعة من الشذرات أن تتحول إلى دليل مشوق مصاحب للقارئ فإن هذا سيكون أعظم إطراء يوجه لشخص مؤلفه الذي بحث عن كثير من تلك السبل المفقودة إلى حد كبير في رحلاته العديدة، بل وسلكها بنفسه في تجواله.

1 سر رماح شونينغن

حضارة الصيد لإنسان هايدلبرغ

من نحو 320.000 ألف عام خلت

إنه العام 1994. وفي الجزء الشرقي من ولاية ساكسونيا السفلى في منطقة شونينغن بالمقربة من مدينة هلمشتاد حيث يتم تعدين الفحم البني (فحم اللجنيت) سطحيا يتم رفع التربة بواسطة الحفارة الضخمة ذات المجرف الدوراني على عمق عدة أمتار. يرافق علماء الآثار عملية الحفر ويفحصون المنطقة قبل أن تقوم الحفارة بنزع طبقات الأرض. وها هم علماء الآثار يجدون في تشرين أول/ أكتوبر على عمق عشرة أمتار عصا خشبية في حالة جيدة. وعلى ما يبدو فإنها قد صنعت وصقلت يدويا حيث تم فصل الفرع الخشبي بعناية من عند منبته. ومنذ مطلع التسعينيات كان علماء الآثار وعلماء النباتات القديمة يبحثون على نحو مكثف عن آثار تدل على عمليات صيد قام بها الإنسان المبكر في منطقة وادي نهر ميسآوه التي كانت في السابق مليئة بالحيوانات البرية.

تواصلت الحفريات على نحو مكثف حيث أخذت تظهر قطع أثرية الواحدة تلو الأخرى: أدوات حجرية (فأس حجري صغير، مكشطة، أسنة مدببة) ولكن أيضا مزيد من الأجهزة الخشبية. حوت الطبقة الرسوبية التي وجدت فيها مجموعة الأدوات بجانب ذلك بقايا من النباتات (حبوب لقاح، بذور) وعظام حيوانات (فرس النهر، ماشية الأُرْخُص المنقرضة، وحيد القرن ميركي، الأيل، الذئب). ولا يعود السبب في كون الأجهزة الخشبية بحالة جيدة إلا لأنها كانت قابعة على حافة بحيرة تعود إلى عصر ما قبل التاريخ (في سفح منطقة إلم) طمر ماؤها القطع الأثرية بالطمي وظلت هذه الطبقة الرسوبية بعدها محكمة الغلق عن الهواء بحيث لم يكن من المستطاع أن تبدأ عملية تحلل كانت من الممكن أن تدمر الخشب.

رويدا رويدا بدأ يرتسم أمام علماء الآثار سيناريو عظيم الصدى حيث اصطدموا في أثناء حفرهم بمخيم للصيادين. كان هناك من بين القطع الأثرية

ثمانية رماح في حالة جيدة – التي هي أقدم أسلحة الصيد في العالم. أما تحديد عمر الأدوات الخشبية وتحليل حبوب اللقاح فقد أفضت إلى حدث آخر مدوي إذ يعود تاريخ مخيم الصيادين إلى فترة بين جليديين[6]، أي إلى فترة راينسدورف الدفيئة، وهي عبارة عن دورة مناخية عظمى ما بين عصر إليستر الجليدي (انتهى نحو 300.000 عام من الزمن الحالي والفترة الباردة زاله-ريس (بدأت نحو 300.000 عام من الزمن الحالي)، أي بفترة طويلة من آخر عصر جليدي (العصر الجليدي لنهري فستولا وفورم) الذي بدأ من نحو 115.000 عام خلت وانتهى قبل نحو 11.500 عام مضت).

وبهذا سرعان ما اتضح أن هذا المخيم بهذا العمق الكبير لم يكن لينتمي إلى الإنسان الحديث تشريحيا، الإنسان العاقل هومو سابينس. إننا نعرف من العصر المبكر لنوع القردة العليا الشيء الكثير، ومن ذلك أن الممثلين لهذا النوع قد وصلوا إلى أوروبا من نحو 42.000 عام مضت إلى أوروبا. أما أجدادهم فقد أتوا من أفريقيا حيث بدأت هجرتهم من نحو 150.000 عام. وقد قادهم مسار هجرتهم عبر مناطق الشرق الأدنى الطبيعية وعبر الأناضول في اتجاه الغرب. لم يكن الطريق نحو الغرب قدوما من البحر آنذاك مقطوعا بعد إذ كانت أوروبا لا تزال مرتبطة بواسطة جسر يابس ضيق عند مضيق البوسفور بآسيا الصغرى. إن فترة استيطان الأرض كانت آخر العصور الجليدية. كان جنوب شرق أوروبا خاليا من الجليد وهكذا استطاع المهاجرون أن يستكشفوا منطقة الغابات في منطقة البلقان وأن يواصلوا الزحف إلى وسط أوروبا وصولا إلى تندرا المنطقة القطبية الشمالية أي السهوب الباردة التي امتدت على حافة الجليد الأبدي[7].

وفي تجوالهم سرعان ما كان الصيادون يألفون المجموعة الحيوانية المحلية في أوروبا المتسمة بالتنوع حيث كان يوجد فيل الغابة الأوروبي الذي كان من أقرباء الفيل الآسيوي وكان موجودا أيضا قريبه المباشر الماموث هائل الحجم أو فيل السهوب. كان الماموث يتغذى على الحشائش والأشنيات وطحالب التندرا التي كانت تشبه مناطق السافانا التي تغطيها الثلوج لتوفر بذلك معروضا متسعا وثريا من العلف. كانت الحشائش والأشنيات تنمو في

---

[6] فترة بين جليديين هي جيولوجيا فترة فاصلة بين الفترات الجليدية المتعاقبة ضمن العصر الجليدي ويكون متوسط درجات الحرارة العالمية المناخية فيها أكثر دفئًا. (المترجم)

[7] يقصد بالجليد الأبدي تلك المناطق القطبية التي كانت منذ الأزل مغطاة بالجليد. (المترجم)

أثناء صيف القطب الشمالي القصير حينما كانت درجة الحرارة ترتفع فوق الصفر لبعض الوقت ويكون قد ذابت طبقة الجليد من على طبقة الأرض العلوية. وكانت حيوانات الرنة تتحرك على شكل قطعان كبيرة مخترقة التندرا.

أما حزام السهوب والمنطقة المعتدلة اللتان امتدتا جنوب التندرا فقد كان يستعمرهما الخيول البرية، دببة الكهوف، ضباع الكهوف وأسود الكهوف، الدببة البنية ووحيد القرن الصوفي وبقر بيسون السهوب، ماشية الأُرْخُص والجديان والأيائل العملاقة. (تسيجلر 2009). وكانت حيوانات الصيد المحببة تستفز مهارة الصيادين الخاصة وتجعل تعاونهم على شكل الفريق أمرا ضروريا.

وهكذا تعلم إنسان العصر الجليدي كيف يصطاد بنجاح الماموث لأن الإجهاز على حيوان واحد كان يوفر كمية هائلة من اللحم والإهاب (الجلد) والعظم التي كان يمكن استخدامها لبناء المساكن. أما الأنياب الخارجية فقد كانت تحظى باهتمام خاص حيث كانت غالبا ما تُزين بتشكيلات زخرفية أو كان صيادو العصر الجليدي يحفرون منها التماثيل المنمنمة من العاج. وكان أقدم الأشكال التي قام الإنسان المبكر بنحتها شكل منمنم مجسم لامرأة يطلق عليها الأثريون اسم "حواء شفابن" حيث تم من خلال الحفريات في عام 2008 الكشف عنها هي وغيرها من القطع الأثرية من العصر الجليدي في مكان ما عند سلسلة جبال إلب شفابن (جورا شفابن)، في منطقة هولر فيلس المليئة بالكهوف (ولاية بادن فورتمبرغ في جنوب ألمانيا)، حيث اتضح أن هذه المكتشفات تبلغ من العمر ما بين 35.000 و40.000 عام (كونراد 2009، ص 268).

غير أن البشر آنذاك لم يكنوا أول صيادي العصر الجليدي، إذ خرج قبلهم بفترة طويلة ممثلون عن نوع القردة العليا في وسط أوروبا وغربها للصيد. وفي أوروبا عاش قبل وصول الإنسان الحديث ثلاثة أنواع من الإنسان المبكر وهم: الإنسان المنتصب الأقدم عمرا، إنسان هايدلبرغ وإنسان نياندرتال اللاحق. ولم يتقابل الإنسان الحديث في أوروبا إلا مع إنسان نياندرتال حيث عاشا جزئيا في جوار لصيق وفي مختلف الأماكن ومنها على سبيل المثال جنوب فرنسا وشمال إسبانيا ولكن أيضا في أماكن تعايش مشتركة (أوتّيه

2014). كما يعزز أيضا افتراض وجود علاقات اجتماعية بين كلا النوعين ما توصلت إليه المعارف المتعلقة بالجين الإنساني، حيث أمكن مؤخرا البرهنة على أن ما تم وراثته من إنسان نياندرتال يصل إلى ثلاثة بالمائة من المكون الجيني الإنساني (زانكارارامان وآخرون 2014).

أما النوعان الآخران فقد كانا قد انقرضا آنذاك بالفعل. وبينما كان إنسان نياندرتال هو النموذج السابق زمنيا وتطوريا للإنسان الحديث تشريحيا فإن إنسان هايدلبرغ يتراوح من منظور التطور ما بين هذين النوعين (جريمو-هيرفيه وآخرون 2015، ص 84 وما يليها.) وتبدأ الفترة التي انتشر فيها إنسان هايدلبرغ في أوروبا وفي أفريقيا في حدود عام 800.000 قبل الزمن الحالي وانتهت قبل نحو 100,000 عام خلت.

وقبل عدة أعوام قليلة مضت كان إنسان هايدلبرغ معروفا فقط من خلال المكتشفات العظمية. وأولى البقايا العظمية التي نُسبت إلى هذه الأنواع كان عظم الفك الذي اكتشف بالمقربة من مدينة ماور (جنوب شرق مدينة هايدلبرغ وهو ما اشتق منه اسم هذا النوع). وبمساعدة مزيد من المكتشفات العظمية في الأعوام التالية أصبح رويدا رويدا من الممكن أن يُعاد تركيب بناء الجسم، حيث تُظهر جمجمة إنسان هايدلبرغ زيادة في سُمك العظام فوق الحاجبين. أما الجبهة فقد كانت مسطحة ومسحوبة إلى الخلف. وكانت الجمجمة أطول على نحو مطلق من جمجمة الإنسان الحديث بجبهته المرتفعة. أما حجم دماغ إنسان هايدلبرغ فتذهب التقديرات إلى أنه كان أصغر بنحو 10 بالمائة من حجم دماغ الإنسان الحديث. وهو ما يشير إلى مرحلة تطورية أولية. وما كان إنسان هايدلبرغ قادرا على أداءه بذلك الدماغ فهذا ما ظل وقتا طويلا مثار تخمينات محضة. غير أن المكتشفات المدوية التي عُثر عليها عند حافة سهل شمال ألمانيا حققت في تسعينيات القرن الماضي فتحا عظيما بالنسبة للمعارف المتعلقة بأنشطة هذه الأنواع من القردة العليا وسلوكياتها.

وبهذا فإننا قد عدنا من جديد إلى منطقة شونينغن وإلى الرماح الفريدة. ففي موقع الاكتشاف هذا لم يكن هناك سوى عظام لحيوانات، غير أنه ظهرت في منطقة بلتسنغسليبين بقايا لجماجم بشرية أيضا، وفك سفلي وبعض الأسنان. ويعود تاريخ كلا موقعي الاكتشاف إلى نفس العصر الدفيء، كما

أن القطع الأثرية شديدة الشبهة بعضها من البعض الآخر. واستنادا إلى بقايا الجمجمة أمكن إعادة تركيب بعض السمات الرئيسة كالتالي: شكل مستطال للجمجمة، قوس حاجبية شديدة الوضوح ومؤخرة رأس منحنية.

ومن خلال مزيد من الأبحاث أصبح من الواضح أن صيادي بحيرة شونينغن كانوا بالفعل ممثلين لإنسان هايدلبرغ. وفي عام 2015 أمكن من خلال تحليل بواسطة التألق الحراري[8] تحديد أدق لعمر الرماح حيث تراوح من 337.000 إلى 300.000 عام. وهذا هو العصر المتأخر لإنسان هايدلبرغ.

يتفاوت طول الرماح، فبعضها يبلغ 1.8 مترا والبعض الآخر 2,5 مترا. وأحد الرماح مصنوع من خشب الصنوبر، أما بقيتها فقد تم صناعتها من جذوع التنوب المستقيمة حديثة العمر. وكما هو واضح فإن الأشجار الإبرية كانت موجودة بوفرة بنهاية عصر الجليدين الدفيء. وتنبئ صناعة الرماح عن المهارة التقنية. ويكمن ثقل أسلحة الصيد تلك في الجزء الأمامي من قصبة الرمح الذي هو أكثر سماكة من الجزء الخلفي. وفي أثناء تجارب أجريت على رماح أعيد تصنيعها على هيئة الرماح الأصلية في شونينغن اتضح أن رماة الرماح المتمرسين أي الرياضيين المعاصرين يستطيعون رمي هذه الرماح إلى مسافة تصل إلى 70 مترا.

والرماح الثمانية المحفوظة على نحو كامل ليست الحدث المدوي الوحيد في مكان الحفريات، حيث عُثر في مخيم الصيادين الذي يعود إلى عصر ما قبل التاريخ على نحو 12.000 عظمة حيوانية. ونحو 90 بالمائة منها تعود إلى الخيول البرية (Equus mosbachensis). وتشير عدد العظام وتنوعها إلى بقايا هياكل عظيمة من عشرين إلى خمسة وعشرين حصانا. واللافت للنظر أن الجماجم لم تكن مشطورة أو منقسمة على نحو أو آخر. لقد كانت إذن أقدم الجماجم التي تم العثور عليها حتى الآن وحُفظت لنا على نحو كامل وتعود إلى الحيوانات التي كان يصطادها الإنسان المبكر. أما أنواع الحيوانات الأخرى التي كانت ممثلة من خلال ما تم اكتشافه من بقايا العظام فهي الأيل ووحيد القرن وفيل السهوب. وفضلا عن الرماح عثر الباحثون على نحو

[8] التألق الحراري واحد من أهم الأساليب المستخدمة لقياس الجرعة الإشعاعية المتراكمة عن طريق التسخين بما يسمح بتحديد دقيق لعمر المادة. (المترجم)

خمسة آلاف قطعة أثرية مصنوعة من الحجر في هذا المخيم. ومن بينها عصا برأس مُفحّم بعض الشيء التي ألمح مدير الحفريات هارتموت تيمه إلى أنها كانت عصا شواء.

وكان من بين عظام الخيول ما يعود إلى صغار الحيوانات مما يوحي بأن الصيد قد حدث في الخريف. أما المكان الذي كان يدور فيه الصيد فمن الواضح أنه قد تم اختياره بعناية. لقد نصب الصيادون مخيمهم بالمقربة من بحيرة تعود إلى عصر ما قبل التاريخ بحيث كان يمكنهم الرقاد بين حشائش البوص الكثيفة تربصا بالفريسة. أما قطيع الخيول البرية التي كانت تتحرك بامتداد شاطئ البحيرة فقد كانت تمر من خلال معبر ضيق يقع ما بين الصيادين المنتظرين وبين الشاطئ حيث قُضي عليها قضاءً شبه مبرم. ويقدر الوزن الإجمالي لكميات اللحم المُقتنصة بنحو أربعة أطنان وعدد سكان المخيم بنحو ثلاثين شخص. ومجرد غزوة صيد واحدة مثل تلك على الخيول البرية كانت توفر لهم طعاما لما لا يقل عن شهرين كاملين. علاوة على ذلك فقد وفرت إهابا (جلودا) كان يمكن منها تصنيع الملابس أو أيضا حبال لشد الخيام. وكان يمكن استخدام أوتار العضلات كحبال لربط الأثقال. ومن المرجح تماما أن الصيادين قد استفادوا من جميع هذه الإمكانات.

كما تذهب التخمينات إلى أن أن المخيم كان يُستوطن في أثناء شهور الشتاء وأن جماعة الصيادين كانت تواصل الارتحال في الربيع. ويشير العدد الكبير من القطع الأثرية وبقايا العظام إلى قدرة إنسان هايدلبرغ على تنظيم نفسه في روابط اجتماعية. وتفتح المكتشفات التي عثر عليها في منطقتي شونينغن وبِلتسنغسليبين أعيننا على نظرة أعمق بكثير على تاريخ التطور عما كان يمكن تصوره حتى حينه. كان نوع إنسان هايدلبرغ يملك على ما هو واضح القدرة على تنظيم المعاملات والتخطيط. كانت حملة الصيد

1 مسرح أحد طقوس الخيول لإنسان هايدلبرغ؟ تفاصيل مجموع سلاح الصيد وجمجمة الحصان

الموسعة على قطيع الخيول البرية عملية تتميز بتركيز كبير يسبقها إعداد على نحو مكثف. كما يعطي النضج التقني للرماح المستخدمة لهذا الغرض انطباعا عن الدراية التقنية المتوفرة لدى الصيادين ويشير إلى الخبرة الطويلة التي طورها هذا النوع من الكائنات في صناعة أسلحة الصيد وفي التعامل معها.

وهناك قدر لا بأس به من المسوغات التي تجعلنا ننطلق من أن مختلف القردة العليا كانت في مجموعها تمتلك القدرة من نحو نصف مليون عام خلت على صناعة الرماح كأسلحة صيد وعلى استخدامها على هذا النحو (تيمه 1997). ويمتد التراث طويل الأمد لتلك لدراية التقنية بصناعة الرماح عبر تاريخ تطوري شمل أربعة أنواع من البشر كانت موجودة كلها في أوروبا: لقد استخدم الإنسان المنتصب هومو إريكتوس وإنسان هايدلبرغ رماحا من الخشب قُطعت على نحو مبسط وكان لها سن مُصلّد مُفحّم جزئيا. أما الإنسان

الذي يعود إلى الزمن المبكر (إنسان نياندرتال) فاستعمل نفس النوع من الرماح، بجانب رماح ذات مقدمة مصنوعة من شفرة حجرية (شملت حجر الأوبسيديان (السَّبَج) أو الحجر الناري) في رأس الرمح. والراجح أن هذه التقنية قد تم اقتباسها من الاتصال مع نوع القردة العليا الذي كان متبقيا، أي الإنسان الحديث تشريحيا. لقد استخدم هذا الإنسان العاقل هومو سابينس بدوره الرماح أو أسنة الرماح المصنوعة من مواد عشوائية، بدءا من الخشب مرورا بالحجر والفلزات وصولا إلى الكربون الحالي. إن تاريخ أسلحة الصيد السابقة موثقة في أوروبا توثيقا شاملا. وكان التفحيم المقصود لرأس الرمح يستخدم لغرض تصليد هذا الجزء من السلاح. وهو ما يفترض مجددا السيطرة على النار وهي قدرة يمكن البرهنة على وجودها لدى الإنسان المنتصب هومو إيركتوس من نحو 450.000 عام خلت (جريمو-هيرفيه وآخرون 215، ص 94 وما يليها.)

لا يزال يحيط برماح الصيد الثمانية التي عثر عليها في شونينغن مسحة من الغموض الذي يشبه الألغاز. لماذا ترك الصيادون الرماح؟ من المؤكد أنهم لم ينسوها هكذا ببساطة إذ كانت الرماح بالنسبة للصيادين بضاعتهم القيمة. بالإضافة إلى ذلك فقد وُضعت الرماح من قِبَل أصحابها في مكان بعينه أي في معية جماجم الخيول تحديدا.

تذكرنا تلك المجموعات المتكاملة من القطع الأثرية وعظام الحيوانات بطقوس الخيول التي لا تزال مستعملة إلى اليوم عند المنغوليين حيث توضع في سياق بعض الطقوس جماجم الخيول في أماكن مقدسة. هل كان صيادو شونينغن يعرفون شيئا مثل الطقوس التي تؤدى لخدمة الطقوس السحرية الخاصة بالصيد؟ هل كان لدى إنسان هايدلبرغ بالفعل تصورات إحيائية[9] حول ارتباط كل أشكال الحياة بعضها مع البعض الآخر وربما تصورات حول الوجود الميتافيزيقي لمبدأ الحياة الذي نطلق عليه الروح؟ إن وضع الرماح وجمجمة الخيول وغيرها من عظام الخيول في مجموعة متكاملة مغلقة يرجح هذا التصور على أقل تقدير.

وفي هذا السياق فإنه يُطرح أمامنا أيضا شكل من أشكال المقارنة مع

[9] الإحيائية (الأرواحية) مذهب يرى وجود "الروح" في كل كائن في الوجود، حيا كان أم جمادا. (المترجم)

طقوس الدببة التي كان لها في الزمن التاريخي انتشار واسع عند شعوب أوراسيا (وصولا إلى شرق سيبريا وشمال اليابان) ولا تزال موجودة إلى اليوم عند الشعوب الأوبية-الأغرية، عند المانسيين (الفوغولس) والخانتيون (الأوستياكس) في غرب سيبريا (هارتمان/ مارلير 2008، ص 98 وما يليها). يعيش الصيادون بتصورات مفادها أن روح الدب التي تُفصل بقتل الحيوان فصلا عنيفا عن الحيوان لا بد من تهدئتها حتى لا تجلب سوء الحظ إلى الصيادين بحيث يمكنهم مواصلة الصيد بنجاح. وهناك مراسم خاصة بهم لهذا الغرض حيث يشارك الدب (ممثلا من خلال إهابه المُعَلّق) بوصفه "ضيف شرف" في حفل الدب الذي يتم فيه التهام لحمه.

ومهما كان النحو الذي سار عليه الطقس في مخيم الصيادين على بحيرة شونغنيغن في أعقاب صيد الخيول البرية فإن الانطباع الذي يتعزز هنا أن نوع إنسان هايدلبرغ كان قد طور تصورات عن ظواهر خارقة للطبيعة. تعود بدايات التدين إذن إلى مرحلة متقدمة في تاريخ التطور، على نحو يتخطى نوعنا نحن أنفسنا. "إن تصوراتنا عن العالم الفكري لإنسان ما قبل التاريخ لا تزال إلى اليوم شحيحة"، بحسب ما يرى باحث التطور رايششتاين (2005، ص 66). "وهي مع ذلك أحد المقومات المهمة لكي نستطيع الحكم على نحو معقول على الأشكال التعبيرية الثقافية، وعلى التدين، وعلى السلوك الاجتماعي والاقتصادي لإنسان ما قبل التاريخ الذي يرتبط بهذا التدين كما هو واضح بعلاقة تبادلية وعلى تعاطيهم مع عالمهم المحيط بهم هنا أو هناك."

غير أن التصورات الدينية تفترض وجود فكر مستند إلى مفاهيم بعينها وهذا الأمر لا غنى عنه هو الآخر لتصميم أسلحة الصيد وصناعتها. إن أولئك الذين كانوا يصنعون الرماح كانوا على وعي بتأثير الجهاز المستخدم للصيد وكانوا يوظفون مهارات عملهم اليدوي لتشكيل سلاح الصيد على أكبر نحو ممكن من الفاعلية. إن تطبيق طقوس للصيد يفترض في خطوة تالية أن الأفراد المشاركين فيها كانوا يعرفون كيف يميزون بين منطقة المعرفة الفيزيقية من خلال التأمل (الحصان البري بوصفه غنيمة صيد واقعية) والمنطقة الخارقة للطبيعة ("الروح" المفترض وجودها في الحيوان). ويترابط التفكير المفاهيمي هذا مع استخدام اللغة إذ أنه عبر التواصل بالأصوات التي لها طابع إشاري رمزي يمكن للإنسان أن يسمي الأشياء في عالمه المحيط به "بأسمائها" وأن ينظم هذا العالم المحيط به ثقافيا. بكلمات

أخرى: إن اللغة وسيلة لا يمكن الاستغناء عنها لإضفاء مغزى على وجودنا نحن أنفسنا وهي وسيلة معبرة عن سلوك الجماعات في داخل الرابطة الاجتماعية.

إذن يطرح هنا السؤال الشيق نفسه كالتالي: هل كان إنسان هايدلبرغ يحوز أيضا اللغة؟ صحيح أن هذا النوع من القردة العليا قد أفصح في أيامنا هذه عن بعض أسرار وجوده، إلا إننا لا يزال من غير الممكن بالنسبة لنا أن نقدم حاليا إجابة عن السؤال المتعلق بالقدرة على استخدامهم اللغة. لا تزال مكتشفات الجمجمة لإنسان هايدلبرغ إلى اليوم غير مكتملة، كما ينقصنا عظام الفك التي قد توضح لنا مكان الحنجرة وتجويف الفم في داخل الجمجمة. وبهذا ينقصنا عنصر جوهري وهو ما يطلق عليه "عَظْمة اللغة" (ليون/ فولاي 2004، ص 467). وهذا التوظيف للعظام بالنسبة للإنسان الحديث وكذا بالنسبة لإنسان الفترة المبكرة أكثر تمييزا وأهمية في منطقة الحنجرة حيث تمر من خلال فتحتها المستديرة الحبال العضلية المسئولة عن حركة اللسان.

أما عند إنسان نياندرتال فإن هذه الفتحة كانت ضيقة خلافا للإنسان الحديث تشريحيا الذي عنده تلك الفتحة أوسع كثيرا. وهو ما يعني أن الإمكانات المتاحة أمام إنسان نياندرتال لإنتاج مواضع مختلفة بلسانه لنطق الأصوات اللغوية في تجويف الفم كانت محدودة نسبيا. أما الإنسان الحديث فبمقدوره بناءً على عضلات لسانه وفيرة العدد أن يصل إلى عدد كبير من المواضع منتجا بهذا عشرات الأصوات اللغوية – وهو أحد المقومات لاستخدام اللغة المعقدة (هارمان 2006، ص 31 وما يليها.) وفي حالة إنسان هايدلبرغ فإن السؤال الذي لا يزال بلا إجابة فهو الذي يتعلق بما إذا كان لدى هذا النوع من الكائنات تشريحيا القدرة على إنتاج الأصوات اللغوية، وإن كانت الإجابة بنعم فإلى أي مدى كانت إمكانات النطق عنده متمايزة. إن اكتشاف "عظمة اللغة" التي تخص إنسان هايدلبرغ سيكون بلا شك حدثا مدويا بحق.

2 الدبدية، البجع البري والأرواح الحارسة المؤنثة

الفن في العصر الحجري القديم على ضفاف بحيرة بايكال

من 30.000 عام خلت

لم تقتصر حياة الممثلين المبكرين للإنسان العاقل هومو سابينس في أوروبا على الإقامة عند حافة الكتل الجليدية التي كانت تغطي الطبيعة في أثناء العصر الجليدي فقد وصلوا أيضا من نحو 40.000 عاما خلت إلى أبعاد سيبيريا. لقد أخذ صيادو العصر الجليدي – وقد أتوا من الغرب – في اكتشاف الأراضي حتى وصلوا إلى سيبيريا الوسطى حيث ارتحلوا في اتجاه الشرق وصولا إلى شبه جزيرة كامتشكا.

تعود أولى مكتشفات مستوطنات العصر الجليدي إلى علماء الآثار الروس في عشرينيات القرن الماضي؛ فعلى مدار بعثات حفر متكررة أمكن يوما بعد يوم تحديد مزيد من معسكرات العصر الجليدي، مساكن تعود إلى العصر الحجري القديم. كانت المستوطنات المبكرة تقع بالمقربة من بحيرة بايكال في سيبيريا الوسطى. أما المكان الذي عثر فيه على أقدم القطع الأثرية التي تعود إلى عصر ما قبل التاريخ فيدعى تولباغا ويقع على الضفة الشرقية من البحيرة حيث يؤرخ الوجود المبكر للإنسان بنحو 35.000 عام من الزمن الحالي. أما مستوطنات بوريّت ومالْتا[10] على الضفة الغربية من بحيرة بايكال فهي أحدث بعض الشيء (نحو 23.000 عام من الزمن الحالي؛ مارتينوف 1991، ص 116 وما يليها).

[10] تكتب عادة في الأدبيات العربية "مالطة". إلا أن كتابتها بالتاء واللام الساكنة المرققة أقرب إلى النطق في اللغة الروسية وتمييزا لها عن جزيرة مالطة المشهورة. (المترجم)

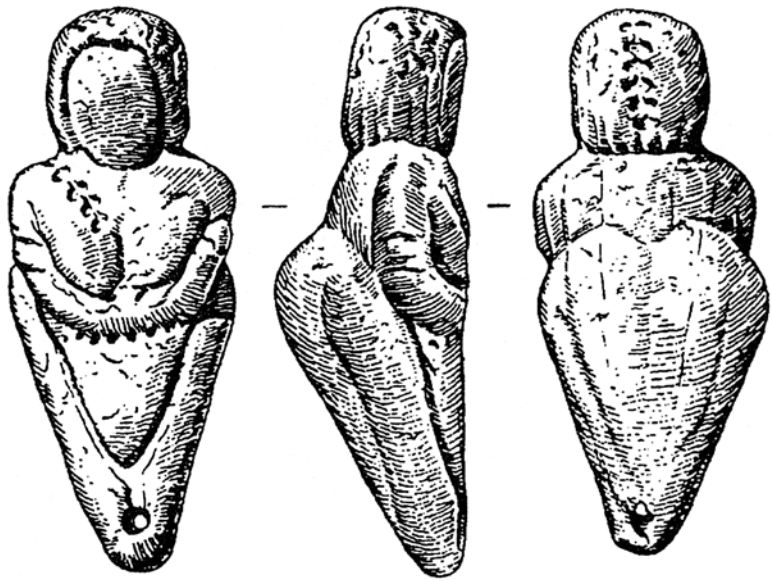

2 كلا النمطين الرئيسيين للأشكال المنمنمة في مالتا

أ) النمط "المكتنز"

ب) النمط "النحيف"

وبالرغم من الفارق الزمني العظيم الذي يفصل استيطان تولباغا عن مالْتا فإن علماء الآثار ينطلقون من أن الأمر يتعلق ها هنا بنفس الحضارة الإقليمية؛ فقد ظلت الظروف البيئية في تندرا القطب الشمالي عبر عدة آلاف من السنين من ناحية الجوهر على حالها دون تغير ومن ثم ظلت الظروف الوجودية للكائنات الحية (المجموعة الحيوانية، المجموعات السكانية البشرية) هي الأخرى في المنطقة مستقرة.

كانت السهوب الباردة في العصر الجليدي في أثناء فترة التجلد القصوى منطقة الصيد بالنسبة للآسيويين القدماء (أو السيبيريين القدماء). وكان من بين الحيوانات في عالمهم المحيط بهم – والتي كان يجري اصطياد معظمها أيضا – الماموث ووحيد القرن الصوفي وبقر البيسون والدببة وحيوان الرنة وحيوانات أصغر حجما مثل الثعلب والذئب والقندس. أما الكساء الخضري للسهوب الباردة وإن كان يقتصر من ناحية الأنواع على الحشائش والطحالب

والأشنيات[11] إلا أنها كانت متاحة أمام الحيوانات بكميات كبيرة.

عُثر في أماكن الاستيطان في العصر الجليدي على عدد وفير من عظام الحيوانات التي تقدم لنا دلائل عن المعروض الغذائي الذي كان متاحا آنذاك أمام الصيادين. وكان من بين المكتشفات أيضا عظام بشرية ومنها على سبيل المثال بقايا من أحد جنازات الأطفال في مالْتا. وتتيح لنا المخلفات المادية للإنسان الذي عاش آنذاك في هذا المكان أن نلقي نظرة إلى داخل الحياة اليومية لصيادي العصر الجليدي. فهناك بالإضافة إلى الأدوات المخصصة للأنشطة العملية المصنوعة من الحجر (المكشطة) والعظام (الإبر) مكتشفات لطائفة كبيرة من القطع الأثرية التي يمكن أن نصفنها اليوم على أنها "حُليّ"، ومن ضمنها أساور للذراع وسلاسل عنق ولويحات مصنوعة من العظم ذات تشكيلات زخرفية ودلايات مثقوبة، من المرجح أنه كان يجري ارتداءها كتعويذات أو كتمائم (أبراموفا 1995، شكل رقم 111 وما يليه). ومن خلال القطع الأثرية وفيرة العدد التي يمكن أن تُفهم بوصفها "فن العصر الجليدي" ينفتح أمامنا بعض الشيء العالم الفكري لهذا العصر حيث يتكشف لنا من خلال النظر إلى عالم التصورات الذي كان لدى المنتسبين إلى العصر الحجري القديم مرحلة البداية للتقاليد الأوراسية في الفن والأساطير.

تعد مكتشفات بحيرة بايكال متفردة لأسباب مختلفة. وإذا ما نظرنا من منظور التسلسل الزمني فإن الأمر يتعلق هنا بأقدم المظاهر الدالة على صناعة الحضارة البشرية في سيبيريا. بل أن أحد القطع الأثرية قد حقق رقما قياسيا؛ حيث تعد أحد القطع المنحوتة التي عثر عليها في منطقة تولباغا والتي تصور أحد الدببة أقدم شكل حيواني معروف إلى الآن. وهي تصنف تأريخيا بنفس الأفق الزمني الخاص بأقدم منحوتة أنثوية في العالم عُثر عليها في أوروبا وهي "حواء شفابن" (انظر الفصل الأول). ويبلغ شكل الدب المنحوت من عظمة حيوان وحيد القرن الصوفي في تولباغا من العمر نحو 33.000 عام. كما أن هناك أيضا الدب المنحوت الذي عثر عليه في منطقة مالْتا، ولكنه يعود إلى فترة زمنية أحدث.

[11] الأشنيات كائنات تكافلية من طحالب دقيقة وبعض الفطريات الأخرى. (المترجم)

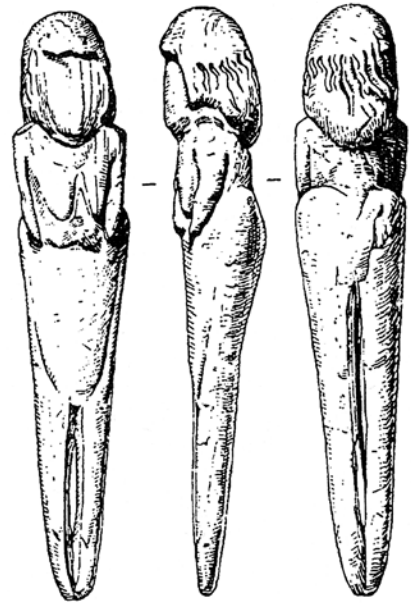

تعد مجموعة من التماثيل المنمنمة الأنثوية ذات أهمية عظيمة للإحاطة ببانوراما الفن التصويري في منطقة مالْتا حيث تتميز تلك الأشكال المنمنمة السيبيرية بجماليات شديدة الخصوصية تتمايز من منظورات عدة عن الأشكال المنمنمة في العصر الحجري القديم المعروفة لنا من أماكن اكتشافها في أوروبا؛ فلكل الأشكال المنمنمة السيبيرية رأس مُشكّل بملامح وجه يمكن فيها تمييز بعض التفاصيل مثل الذقن والأنف ومنطقة الفم. وخلافا لذلك فإن معظم الأشكال المنمنمة الأوروبية ينقصها الرأس، وحيثما كان يتم بالرغم من ذلك تصويره على سبيل الاستثناء فإن ملامح الوجه لم يكن لها وجود. علاوة على ذلك فإن الأشكال المنمنمة السيبيرية تطرأ على نمطين رئيسيين: فبينما كانت الواحدة منها "مكتنزة" كانت الأخرى "نحيفة".

إن مثل تلك القطبية على هيئة نمطين رئيسيين لا مثيل لها في أوروبا؛ فالغالبية العظمى من الأشكال المنمنمة في أوروبا التي تعود إلى عصر ما قبل التاريخ تُظهر مقاييس جسدية مكتنزة. ولا يوجد خلافا لهذا إلا استثناءات محدودة، ومنها على سبيل المثال القطعة المنحوتة التي وجدت في غالغنبرغ (بالمقربة من منطقة كريمس في النمسا السفلى) والبالغ عمرها 31.000 عام والتي تظهر سيدة نحيفة أطلق عليها بسبب وضعية وجهها "فينوس

الراقصة".

ويتفق علماء الآثار والاثنوغرافيين (علماء الأنثروبولوجيا الوصفية) على الافتراض الذي مفاده أنه يمكن على الأرجح فهم نمط الأشكال المنمنمة المكتنزة في إطار التصورات المتعلقة بالخصوبة في حين أن النمط النحيف يُربط بسياق التصورات الإحيائية عن الأرواح الحارسة التي تقطن في كل ما هو حي في الطبيعة. وهذه الأرواح الحارسة في المأثورات الأسطورية للشعوب الأوراسية جميعها مؤنثة. "من النمطي بالنسبة لتصورات الشعوب الفينية-الأوغرية أن الأرض وكذا العناصر المختلفة وظواهر الطبيعة للعالم الأوسط (الماء، النار، الريح، الغابة إلخ) هي تجسيد لآلهات مؤنثة (أرواح مؤنثة) (mother-spirits)." (أيخنفالد وآخرون 1989، ص 158)

أما الأشكال المنمنمة النحيفة فقد وُظفت خصيصا لتكون رمزا معبرا عن التماسك داخل جماعات صيادي العصر الجليدي الأوراسيين حيث انتظموا في قبائل أو روابط عشائرية، وأوكل فيها للمرأة دورا تفضيليا بوصفها منسقا داخل تلك الشبكة الاجتماعية. وقد افترضت مديرة الحفريات في مالْتا في تسعينيات القرن الماضي وجود رابط وثيقة مسلم بها بين "المرأة – الشخصية المهيمنة في محل السكن – وشخصية الأم العليا للجماعة المنزلية وكذا موقد النار المحلي" (أبراموفا 1995، ص 82)، حيث نجد ما يعزز تلك الوظيفة المزدوجة في المأثورات الأسطورية لشعوب أوراسيا، حيث يدور الحديث أيضا عن الرابطة بين "الأم – الأم العليا" (مؤسسة القبيلة) بوصفه مبدأ مقدسا ذا توجه أنثوي أو مبدأ مقدسا يستند إلى نظام العشيرة." (أوفسيانيكو/ تيريبيخين 1994، ص 71).

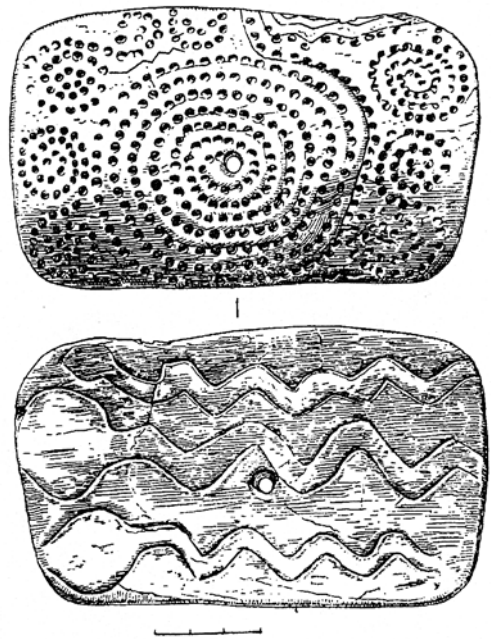

3 نقوش على لويح مألتا

كما كانت أيضا المنحوتات التي تصور حيوانات مختلفة على نفس هذا العدد الوفير من التماثيل الأنثوية. ففضلا عن بعض الأشكال القليلة للدببة فإن التصويرات المتعلقة بالطيور المائية كانت متكررة على نحو كبير. تشير الأعناق الطويلة إلى البجع البري الذي كان منتشرا في كل منطقة أوراسيا. ويعرف الفن التصويري في مدينة مألتا أيضا رسومات منقوشة، ومنها على سبيل المثال تصوير أحد أفيال الماموث على قطعة مسطحة من العظم. وما يثير الاهتمام الخاص فهو لويح من العظم حفرت في أحد جوانبه مجموعة من النقاط على شكل اللولب، وعلى الجانب الآخر حفرت ثلاثة من الثعابين بواسطة تقنية النحت البارز. وكان اللولب أو الثعبان على حد سواء معروفين بوصفهما موتيفات مقدسة تنتمي إلى الأساطير الأوراسية.

كانت الطوطمية منذ الفترة التاريخية لشعوب سيبريا عظيمة الانتشار. لقد ربط المانسيون (الفوغولس) والخانتيون (الأوستياكسن) – وهي شعوب أورغية في غرب سيبيريا – أصولهم وحتى اليوم بالدب، الحيوان المقدس للأساطير الأوراسية. وطبقا للأسطورة فقد أرسلت الأم الشمس والأب السماء ابنهما الدب إلى الأرض لمراقبة استمرار الخلق. كان الدب محبطا لأنه لم

يكن هناك بعد بشر، فكان أن اتخذ لنفسه روحا حارسة أنثوية من الطبيعة لتكون زوجة له وكان نسلها أقدم عشائر سيبريا (شميدت 1989).

كانت كثير من الشعوب الصغيرة تنظر إلى البجع البري هو الآخر على أنه الجد الأسطوري لها ومؤسس القبيلة. وفي المأثورات يجري وصف قومية السامي في شمال أوروبا على أنها "شعب البجعة". وكان التونغسيون وكذا شعوب ألطاي تنصب عواميد ثبت عليها أشكال منحوتة على هيئة الطيور كان يجري تقديسها بوصفها آباء عليا أسطورية. ويُفسر دور الطائر المائي بوصفه رمزا مقدسا في الأساطير بأن مثل تلك الطيور تستطيع أن تغطس تحت سطح الماء لتختفي بعدها عن النظر. وفي التصور الإحيائي تمثل الطيور المائية الوسيط بين الحياة الدنيا أي العالم المرئي وعالم الأجداد أي العالم المحجوب. ومن قديم الأزل كان هناك متخصص للتواصل بين الكائنات في الحياة الدنيا والحياة الآخرة. وهذا المتخصص هو الشامان[12] (وهي كلمة مأخوذة من لغة التونغسيين) الذي يستطيع بطقوسه أن يجعل طائر الماء يفصح عن معلومات عن العافية التي يتمتع بها الآباء العليا في العالم السفلي. (كاريه 2000).

لقد امتد العصر الحجري القديم في سيبيريا فترة أطول منها في أوروبا؛ فلم ينقض العصر الجليدي إلا من نحو 10.000 عام من الزمن الحالي لتنتهي بهذا مرحلة حضارة العصر الحجري القديم في سيبيريا في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعايش بالفعل فترة الازدهار العظيم للعصر الحجري المتوسط (بايلي/ سبيكينس 2008). كما لا يوجد في التسلسل الزمني الحضاري لسيبيريا مرحلة انتقالية يمكن مقارنتها بالعصر الحجري المتوسط في أوروبا. وبنهاية العصر الجليدي ارتحلت الحيوانات العملاقة تاركة أوروبا عائدة إلى سيبيريا حيث واصلت الحياة لعدة آلاف من السنين بعدها. وكان آخر ملاذات حيوان الماموث هو شبه جزيرة تايميار في أقصى الشمال خلف الدائرة القطبية. أما أحدث الأنياب الخارجية التي عثر عليها هناك فيعود تاريخها إلى الألفية السادسة قبل الميلاد.

لقد تسبب ارتفاع درجة حرارة المناخ إلى ذوبان الكتل الجليدية الهائلة

---

[12] الشامان في التصورات الدينية لشعوب آسيا الوسطى وشمال آسيا هو المعالج الروحي الذي يمثل وسيطا ما بين قوى الطبيعة والقوى الخارقة للطبيعة. (المترجم)

وأخذت البيئة الطبيعية في التغير على نحو ملحوظ. وتزحزحت منطقة تندرا القطب الشمالي ناحية الشمال. أما عن الحيوانات البرية العملاقة التي هيمنت على الطبيعة في السابق فقد تحركت عائدة إلى أماكن تأويها حيث انقرض بها كثير من أنواع حيوانات العصر الجليدي. واحتلت النباتات الأولى مثل شجر التنوب والبتولا في مسيرتها المستمرة تجاه الشمال يوما بعد يوم مزيدا من الأراضي وفي بضعة آلاف قليلة من السنوات امتدت منطقة غابات متسعة كثيفة الأشجار يطلق عليها التايغا في خطوط العرض الشمالية. غير أن الظروف الحياتية للإنسان بما في ذلك حضارة الصيد لديه ظلت في جوهرها على حالها حتى لو تحول الصيادون من صيد الحيوانات البرية العملاقة إلى صيد الحيوانات الأصغر حجما.

وأخذ الإنسان الذي عاش في أثناء العصر الجليدي على حافة الجليد في التجوال شيئا فشيئا إلى منطقة الغابة وأيضا إلى تندرا القطب الشمالي التي امتدت الآن وصولا إلى مناطق واسعة شمال الدائرة القطبية الشمالية. وانفصل سلف الصيادين عند بحيرة بايكال إلى مجموعتين، حيث ظلت الأولى في المنطقة مواصلين حياتهم على نهج أجدادهم. صحيح أن أماكن الاستيطان الأقدم تم التخلي عنها إلا أن أماكن جديدة قد نشأت لا تبعد كثيرا عن المناطق الطبيعة المحيطة ببحيرة بايكال (مارتينوف 1991، ص 119). أما غيرهم من أسلاف صيادي العصر الجليدي فقد واصلوا الارتحال إلى ناحية الشمال وصولا حتى إلى شرق سيبريا وإلى شبه جزيرة كامتشاتكا حيث يعيش هناك أحفادهم إلى يومنا هذا. إنها شعوب آسيا القديمة – شعوب صغيرة لا يزيد عدد الواحد منها عن المئات أو الآلاف من البشر حيث ينتمي إليها التشوكشيون، الكورياكس، النيفخيون، الإيتيمينيون، اليوكاغيريون والكيتيون.

أما من كان عدده أكبر من هذا فقد كانوا "القادمون الجدد" من أوروبا الذين استعمروا في حدود عام 2500 قبل الميلاد شمال سيبيريا. فصلت جبال الأورال أوروبا عن سيبيريا إلا من ممرين سمحت بالعبور الحر، حيث انفتح الممر الجنوبي بين نهاية جبال الأورال ونهاية الساحل الشمالي لبحر قزوين الذي كان "بوابة الشعوب" التي تعود معرفتنا بها إلى الزمن التاريخي حيث هاجرت منها جماعات غفيرة العدد من الرُحّل من أوروبا إلى آسيا الوسطى وسيبيريا وأيضا في الاتجاه المعاكس. أما الممر الشمالي في المنطقة الساحلية

للمحيط المتجمد الشمالي فقد أتت من خلاله الجماعات الأورالية التي هاجرت إلى شمال سيبيريا. أما أحفادهم فهم من ناحية الشعوب الصغيرة الساموييدية في شمال سيبيريا (النينيتس، الناغنسان، السلكوب والإنيتس) التي كان مصدر رزقها الأساسي – كما كان الحال مع الآسيويين القدماء – تربية حيوان الرنة. أما الأحفاد من الناحية الأخرى فهم الشعوب الأوبية-الأُغرية التي ترتبط بصلة قرابة مع المجريين في أوروبا (المانسيون/ الفوغولس، والخانتيون/ الأوستياكسن).

إن الآسيويين القدماء (السيبيريون القدماء) و"الوافدين الجدد" الأوراليين وإن كانوا يختلفون من منظور لغاتهم إلا أن بوصلة حضاراتهم كانت تشير بوضوح إلى نفس الحياة السائدة شمال الدائرة القطبية التي تكيف معها الشعوب الصغيرة كافة.

ظلت الرؤية الدنيوية الإحيائية للصيادين في منطقة بحيرة بايكال عبر آلاف مؤلفة من السنين على حالها ولم تشهد ملامحها الأساسية مع مرور الوقت إلا تحولا شكليا محدودا تماما. وعليه فقد احتفظت مجمل الموتيفات الموجودة في الفن التصويري المعروفة لنا من خلال ذخيرة القطع الأثرية وأجناسها في مالْتا بأهميتها في المراحل المتأخرة من تطور الحضارة، أي في شامانية سيبيريا (هارمان/ مارلر 2008، ص 70 وما يليها). وهي لا تزال موجودة إلى اليوم عبر المظاهر التالية:

- التماثيل المنمنمة بوصفها رمزا لأرواح الطبيعة الحارسة وبوصفها الأمهات العليا أو بوصفها مؤسسات القبيلة.

- تصويرات الدببة بوصفها طوطما وبوصفها "ملك الغابة".

- الطيور المائية بوصفها طوطما وبوصفها وسيطا بين العالمين، عالم الدنيا وعالم الآخرة.

- ثم أخيرا الثعابين بوصفها رموزا لدائرة الحياة (التجدد من خلال تغيير الجلد).

"كانت الشامانية أكثر المؤسسات قدما وعمرا وأطولها حياة في نصف الكرة الأرضية الشمالية. تمثل الشمانية مؤسسة العائلة، مؤسسة العشيرة

حيث حافظت على مكانتها في داخل جماعات الصيادين وجامعي الثمار وكذا الزراع حتى أيامنا هذه وهي لا تزال تواصل الحياة في عصر الصناعة." (كاريه 2000، ص 104)

تنتمي الأشكال الرائدة والموتيفات الرئيسية في الإبداع الفني على يد صيادي العصر الجليدي على ضفاف بحيرة بايكال منذ قديم الأزل إلى الميراث الثقافي للبشر في سيبيريا وهي شديدة الرسوخ في المأثورات الشفوية لأساطير أوراسيا وكذا في ذخيرة الطقوس الشامانية. ومنذ ثلاثينات القرن العشرين زعم الأيديولوجيون الروس أن الشامانية بوصفها "أحد بقايا" الشكل البدائي للمجتمع قد تم تجاوزها. إلا أنه بعد إلغاء النظام السوفيتي وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي في عام 1991 علم الرأي العام العالمي حينها أن الأمر لم يكن هكذا (جلافاتسكايا 2001). فقد ظهر السيبيريون المحليون على خريطة الأحداث وقادوا الزوار الغربيين إلى أماكنهم الطقسية السرية في الغابة التي حافظوا فيها عبر عشرات السنين من السيادة السوفيتية على الميراث الثقافي لأجدادهم.

إن الشامانية التاريخية لسيبيريا مترسخة من الناحية الزمنية في عالم المُثل لصيادي العصر الجليدي وفي تصوراتهم عن الطبيعة الحية. وهذا الوعي اليقظ إلى اليوم عند السيبيريين بضرورة حماية بيئتهم الطبيعية تضع لنا جميعا معايير للاهتداء بها.

تجدون مزيدا من المعلومات عن هذا الكتاب وغيره من الكتب الأخرى التي تصدر في دار نشر بيك في الرابط التالي: www.chbeck.de